تحية الى اصدقائنا القارئين

دفاعاً عن العرب والإسلام

بقلم عبد الله القصيمي

نرفض الاستماع الى اي قائل يتهم العرب او الدين بعداء الفكر والحرية كيف كانت اشواطهما ، ونصر – مفاخرين – على التوكيد بان الطبيعة العربية والطبيعة الدينية تتسعان لكل حرية ولكل تفكير دون ان تعاقبا او تصادرا .. ولو وجدنا من يتهمهما بمقاومة المفكرين والاحرار في اي عهد من العهود لحسبناه عدواً للعروبة وللدين يريد ان ينال منهما بهذه التهمة الكاذبة الفظيعة . ونحن دائماً كلما اردنا ان نعدد محاسن الاسلام والعرب نذكر في اول ما نذكر صداقتهما للحريات والافكار والترحيب بها مهما كانت جنسياتها واوطانها ..

وهذا لان الناس جميعاً مقتنعون بان الحرية والتفكير زادان انسانيان لا يمكن الاستغناء عنهما لانهما هما المادة الاولى التي صنعت منها جميع حضارات الانسان حتى اديانه ومقدساته .. وان اتهامها والتخوف منهما هو اتهام لكل الحقائق وتخوف منها .. فاتهام الحرية – خوفاً منها على عقيدة او على شيء مقدس – هو اتهام غير مباشر لتلك العقيدة ولذلك الشيء المقدس لانها كانت هي الطريق اليه والمعرفة به ..

وهم يدركون كذلك ان الحقائق الصحيحة لا يخشى عليها من التفكير الحر لان الحقيقة لا تخشى التجربة ، والتفكير الحر نوع من التجربة ..

ولان الحقيقة قوية بنفسها ، والقوي لا يخشى التحدي ..

ولان الحقيقة تصقل بالاحتكاك وتوهب الثبات والقوة ..

ولانك لن تخشى على جواهرك الصحيحة بين الجواهر الزائفة ، ولا على الشمعة – مهما كانت خافتة – من ان تطفئها الظلمة ..

الناس كلهم يعلمون انه لا يمكن ان يجي شيء – سواء أكان انسانا ام ديناً ام مذهباً – بأعظم من ان يتهم بعداوة الفكر والحرية ، لانهم يدركون ان ما هو حق لا يحتمل ان يعاديها ، وانها دائماً هما طريق الحق وسنده ونسبه .. ولانهم ايضاً يدركون أنها – اي الحرية والتفكير – هما اجمل وجوه الانسانية وافضل اكتشافاتها واصدق احتياجاتها واروع متعها في هذه الحياة .. بها بدأ الانسان وبها خطا خطواته الصاعدة كلها نحو أفلاكه ؛ حتى الدين نفسه لقد كان في اوله نوعاً من الحرية والتفكير ولكننا بعد هذا نرجع ونتهم الطبيعة العربية والدين بما نحاول تبرئتهما منه ..

اذا كتب كاتب مبدياً آراء في الدين او في الثقافة العربية – وكانت هذه الآراء تخالف ما اطعمناه في الصغر – نهب غاضبين ونصر على اتهام ذلك الكاتب بالكفر وبالتآمر وبعداء العروبة ، وننهض حاملين للمعاول كي نحطم ذلك الرأس الذي أضله الشيطان ، ثم نمضي في حملتنا الصاخبة العنيدة حتى نخمد ذلك الصوت الغريب او نجهز على صاحبه بعد ان نغمس اشلاءه في دماء الجريمة ونلوث ثيابه بالاوحال ونكتب على قبره وثيقة الاتهام !!

وسلوكنا هذا يعطي اقوى اساليب التدليل على اتهام العرب والاسلام بما نحاول جاهدين ابراءهما منه ..

نحن الآن في النصف الثاني من القرن العشرين – حيث يضع الانسان الخطط لغزو الكواكب ولخلق الاقمار الصناعية بعد ان تخطى مرحلة الصراع حول جواز الحرية والتفكير بما يساوي الوقت اللازم للانطلاق من الايمان بمبدأ الحرية الى القدرة على خلق الاقمار ..

فاذا كنا في هذا العصر – عصر السفر بين النجوم – ننتفض فرقاً وغضباً كلما سمعنا نقداً لا يخضع لما ألفناه من صور العقائد والآراء والمسلمات ، وتنفجر فينا الحمية العربية والحمية الاسلامية عاجّتين بالسخط والتنادي والاتهام ، ونطلق على اولئك الناقمين المتوقحين غيوماً باهظة من الدخان المملوء بقتر الاعراض المحترقة في سعير التهم والثورات .. – اذا كان ذلك كذلك ، فأي وقت اذن قبل هذا كانت الحرية والتفكير فيه عملين نبيلين او عملين مباحين ؟

حينما سولت لي الجرأة ان انشر كتابي «هذي هي الاغلال» نهض اقوام من المؤمنين الاتقياء ، يدفعون الخطر الداهم بالمؤلفات والمقالات والتهم المثيرة ، ونهضوا في حماس وغضب باسل يحركون قوى السماء كلها ضد الكاتب المسكين !!

وكانوا فيما يظنون يذودون عن الدين المهدد بالمؤامرة الكبرى!

ومنذ اسابيع حين نشرت في مجلة «الآداب» مقالاً، انزعج فريق من الكتاب المؤمنين المخلصين، واحسوا في روعة عميقة وايمان صادق جليل ان من وراء هذا المقال المتواضع اخطاراً وخططاً دولية موضوعة - وتوشك ان تنفذ - للقضاء على العروبة والاسلام، وراحوا بوحي من هذا الاحساس العميق الصادق يرجمون الكاتب الضعيف ويسقطون فوقه الاثقال، وأخذوا يتهيأون لاتخاذ مواقفهم من الصفوف المقاتلة دفاعاً عن شرف التاريخ العربي وعن الدين المعرضين للغزو الفاجر الشرير.. وهكذا دائماً كلما وجد تفكير وحرية وجد هجوم واتهام وتحطيم..

نقاوم الاحرار والمفكرين باسم الغيرة على الدين وعلى العروبة ثم نذهب ندعي - واثقين - ان الدين والطبيعة العربية لا تضيقان باي لون من ألوان الحرية والفكر، وان تاريخهما كان طريقاً طويلا عبرت من فوقه كل قوافل الحريات والافكار الى نهاياتها البعيدة في امان وروعة!

لقد وجد كثير من كتاب العرب والمسلمين في امثال ابن المقفع وبشار وابي العلاء وابن رشد وغيرهم سبباً للمفاخرة والايمان بان تاريخنا كان يفتح ابوابه ومشاعره الفكرية لهؤلاء الذين تحركت رؤوسهم في عهد مظلم بأجنة الحرية والفكر.

وذهب فريق من هؤلاء الباحثين عن الامجاد العربية في عملية اكتشاف واسعة للتنقيب عن المفكرين الاحرار الذين استطاعوا ان يعيشوا ويفكروا من غير مطاردة او قتل، حتى لقد ود كثيرون من هؤلاء ان يجدوا اعداداً لا تحصى من الزنادقة الكبار عاشوا في حقول التاريخ العربي الاسلامي ليدللوا بذلك على ان الطبيعة العربية والاسلامية صديقة اصيلة للحرية والتفكير.. وكان هذا الادراك والشعور هو المسوغ لان نتحدث باعتزاز ومباهاة عن ابن رشد وابن خلدون وابن سينا والفارابي والرازي وابي العلاء واخوان الصفا اكثر مما نتحدث عن اعلام رجال الفقه والحديث والدين، بل وعن الائمة الذين صنعوا المذاهب واتبعهم الناس..

وحينما نريد ان نباهي بتاريخنا الفكري ونعدد مزاياه ونؤكد كيف كنا نحن العرب والمسلمين الانطلاقة الاولى التي تتابعت على اثرها الانطلاقات الحضارية الكبرى كلها، كأنما هي طاقة اندفاعية لها - نعم حينما نريد ذلك فلن نجد غير هؤلاء المتهمين بايمانهم وبتمردهم على «ما كان» ليكونوا سند تباهينا الرزين!!

ولكننا مع تباهينا «بما كان» في اصرار وايمان وكبرياء وإشارتنا الدائمة الى ما كان في تاريخنا من حرية وتمرد واحرار ومتمردين، ومع اقتناعنا بان هذا وحده هو وثيقة أي شعب من الشعوب على فضيلته وتفوقه نأبى - وهذا عجيب - بان يكون بيننا من امثال اولئك الذين «كانوا» احد، بل ونصر على شدخ رؤوسهم لو وجدوا، ونتبارى في مقاومتهم والقضاء عليهم!!

وهل معنى هذا أننا لا نقبل الاحرار والمفكرين ولهذا لا نقبل معاصرتهم وانما يجيئون اذا جاءوا على كره منا؟ او هل معنى هذا ايضاً ان اولئك الذين كانوا احراراً ومتمردين - ونفاخر بهم اليوم - انما كانوا كذلك على كره من معاصريهم؟ او هل معناه ان فينا ميلاً أكيداً الى تقديس الماضي وتبريره حتى ولو كان ذلك الماضي ثورة وتمرداً على الماضي نفسه؟

أرى مخلصاً - وارجو ان اكون مصيباً - ان هؤلاء الكتاب الفضلاء الغيرى الذين يتعبدون دائماً بشحذ أقلامهم الصالحة لتحطيم كل رأس يحمل فكراً او حرية او تمرداً على اخلاق القطيع لا يفعلون شيئاً يفيد العرب ولا الدين، وليسوا بهذه المقاومة يدافعون عنهما او يشرفونهما، بل انهم بمقاومتهم وهلعهم الاكيد يعطون فكرة غير صالحة عن موضوع دفاعهم!

يجب ان نرى وان يروا ان الاسلام والتاريخ العربي قويان بخصائصهما وباسباب البقاء والقوة فيهما لا بابعادهما عن الحركة والنضال... ان النضال والتمرس بالاخطار ليشدان القوى ويرهفان المواهب ويبعثان الامكانيات.. واذا كنا لا نقوي عضلنا بالركود والسلامة ولا بالخوف من التعب فاننا ايضاً لا نقوي عقيدتنا او تاريخنا باخراجهما من المعركة والخوف عليهما!!

كيف نستطيع ان نقتنع باننا ننصر حقائقنا العزيزة علينا بابعادها عن الانوار وبتكتيفها في الظلام وبالمحافظة عليها من التمرس بالأحداث؟

«عش في خطر، فان الضربة التي لا تقتل تقوي...» هكذا تكلم المعلم نيتشه.

كم تجني الام الجاهلة على وليدها اذا رأت ان تحافظ على صحته وحياته بابعاده عن تقلبات الطقس وعن التعرض لمزعجات الحياة وملاقاة الانداد ومشاجراتهم؟

وكم كذلك يجني الصالحون على عقائدهم وحقائقهم اذا رأوا ان يحافظوا عليها بان يقصوها عن الخلافات وعن المعارك والمشاجرات الفكرية؟

ان الخلاف على العقائد والافكار وتحديها يبعث فيها

مارد المقاومة ويهيب بحماسها الى الانطلاق ويرفع عنها اعباء الخمول ، بل وينضجها ويثير غيرة المؤمنين عليها ويحفزهم على الالتفاف حولها ... واكثر من هذا واكبر انه يصقلها ويسقط عنها عوامل الضعف وما لا يصلح للبقاء والمقاومة — انه عملية تطهير ... كثير من عقائد الناس ومذاهبهم قد مات او هو في حالة اسوأ من الموت لانه قد اصبح من المسلّمات المتبلدة التي لا تصطلي بنار خلاف ولا برهج شك ... وانه لمن الممكن ان ترد لها الحياة لو قام من ينقدونها ومن يعرضونها للاصطدام والحركة . فالعقيدة التي تعيش في معركة اقوى من التي تعيش في سلام !

وهؤلاء المؤمنون الذين قد مات الايمان في نفوسهم وفقدوا كل حماس ونبض ، كان من المحتوم ان يردوا الى ايمانهم الحياة والنشاط والى نفوسهم الحماس والنبض لو انهم وجدوا من يصدمون معتقداتهم ويحملونهم على التفكير فيما يؤمنون به !!

لعل الفرق بيني وبين هؤلاء الاخوان الذين انزعجوا على مصير العقائد والتاريخ العربي خوفاً عليهما مما كتبت اني انا لم افترض ابداً ضعف العقيدة والثقافة العربية الى هذا المدى الذي افترضوه وخافوه ، واني كنت ارى انهما اقوى جداً مما حسبوا وخافوا ... بل كنت ارى عكس ما رأوا أنني امجّدهما واعطيهما من احتمالات التقدم والانتصار والتطور أضعاف ما تصوروا ... هم ظنوهما اهتزازتين واهنتين ، بقاؤهما في نسيانهما وفي ابعادهما عن المخاطرة رعاية لضعفهما ... اما انا فقد رأيتهما عملاقين راسخين يتحديان من يتحداهما ويزيلان ولا يزولان ... فلم أخش عليهما مما خشوا ولم أظن بهما ما ظنوا ...

وانا كذلك رأيتهما حقيقتين قابلتين للتكامل والتطور والتوافق استمراراً مع الحياة والظروف لأن لهما ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ... أما هم فقد اعتقدوهما أمرين متجمدين لا يتغيران ولا يتطوران ولا يتكاملان ، وليس لهما الا ماض فقط . ولهذا فهم يقصونهما عن كل خلاف وكل خصومة وكل محاولة وكل تطوير . وقد غابت عنهم هذه الحقيقة الكبيرة التي معناها : ان الافكار الصحيحة تقوى وتنتشر كلما هوجمت وخوصمت ...

نحن العرب والمسلمين لسنا محتاجين الى مزيد من الرضا عن النفس والاعجاب بالتاريخ والآباء ، اذ نحن والحمد لله متفوقون في هذا تفوقاً حاسماً ... ولكننا محتاجون الى ان نحول بعض هذا الغرور وهذا الرضا الى عمليات صعبة — الى حوافز تجعل منا فاعلين لا متحدثين فقط عن مجد التاريخ ومجد الاسلاف . فاسلافنا يرضيهم ان نتفوق عليهم اكثر مما يرضيهم ان نفاخر بهم ...

وانه لمبدأ خطير ان نتهم كل من لا يسيرون في مجرانا الفكري بانهم متآمرون ومخربون واعداء ...

من الحق لنا ان نخالف وان ندافع عن مقتنياتنا الفكرية وألا نؤمن الا بما نرى ... ولكن ليس من حقنا ان نتهم مخالفينا بالفساد او بالخيانة او بالتدبير العدواني ...

لسنا نحن الحقيقة الكاملة التي يجب ان تركع تحت قدميها كل الحقائق الاخرى ... نحن بعض الحقيقة ومخالفونا بعض آخر لها — هكذا يجب ان نظن ونتواضع ... اما كل الحقيقة فشيء يتوزع على الزمن كله ... ولهذا فان احداً أو شعباً لا يستطيع ان يحيا الحقيقة كلها الا اذا كان ممكناً ان يحيا الزمن كله ... !

القول بالحقيقة الكاملة الجاهزة قول ينتهي بمعتقديه الى الغباء والوقوف والى التعصب والكبرياء الجاهلة ... وهو قول ينافي الحياة والانسانية والاديان نفسها ...

وانه لضرب فظيع من عشق الذات — بل من عبادة الذات — الزعم باننا دائماً نحن المصيبون الطيبون ، وان الآخرين هم دائماً الضالون الشريرون ...

كيف ؟ لماذا أكون انا ضالاً وفاسداً ومدمراً اذا خالفتك يا صاحبي ، ولا تكون انت كذلك اذا خالفتني ؟ من الذي منحك الحق في ان تكون انت انت وحرّم علي ان اكون انا انا ؟ ان كان ذلك لانك تعتقد انك هكذا فانا ايضاً اعتقد في نفسي كما تعتقد انت في نفسك ! كيف يجوز ان يكون لكل مناشخصه ولا يجوز ان تكون له شخصيته — او كيف يجوز ان تكون للمرء سماته البدنية ثم لا يجوز ان تكون له سماته الفكرية ؟ إذا كانت حياتنا وظروفنا وامكانياتنا مختلفة فكيف ينتظر ان تكون افكارنا ومشاعرنا متفقة ؟

ما الانسانية ، وما الحضارة ، انهما مجموع اختلافاتنا واتفاقاتنا ... ماذا لو اننا حذفنا من حساب الأنسانية ومن حساب الحضارة كل خلاف ؟

ان الشعوب المتحضرة القوية هي اكثر الشعوب تفاوتاً

واختلافاً ، وان البداة والمتأخرين لأكثر توافقاً في الاعتقاد والتفكير والشعور والاحتياج ...

الشعوب العظيمة يوجد فوق قمتها امثال افلاطون واينشتاين بينما يوجد تحت قاعدتها جماهير المزارعين والعمال الطيبين الذين يبتسمون لكرم السماء ! وهذا التفاوت بين القمة والقاعدة هو الشوط العظيم الذي تتحرك بين طرفيه خطوات الامم كلها .

اما الشعوب المتخلفة فهي ترفض ان تكون لها قمة وقاعدة — نريد ان يكون الجميع قاعدة — قاعدة بلا قمة ! لهذا فهي تدأب ابداً على تحطيم القمم — انها دائماً تفضل صفات القطيع !

لقد كان القدماء اكثر حكمة وعدلاً من اكثر هؤلاء المختلفين، فقد كانوا يرون الحقائق مقسمة بين جميع الآلهة ولم يروها في إلـه واحد ... اما هؤلاء المخالفون المحترمون فهم يرون الحقائق كلها في جانب واحد !! ما أشجعه من خطأ غير رصين !

شكوت في مقالي المنشور في مجلة « الآداب » من أن الظروف العربية لم تمكن الفكر العربي من ان يكون خلاقاً مقتحماً جسوراً ، ينطلق في كل الآفاق ويتدخل في كل المعارك دون ان يخشى او يهون ... فقام المخالفون يشجبون هذه الشكوى ويزعمونها اساءة للعرب واستهانة بتراثهم الفكري الشجاع ... اما انا فارجو ان يكونوا على حق وان اكون انا مخطئاً .. ان هذا لموضع شرف وسعادة لي ...

ولكن ... ألا يلاحظون انهم بهجومهم العاصف واتهامهم الجارح لي ولما كتبت بانه مؤامرة وتدمير ومحاولتهم استعداء المشاعر والمصالح والتقاليد ضدي — نعم الا يلاحظون انهم يتناقضون بين دفاعهم هذا وبين محاولاتهم هذه المهينة ؟

لست أعني محاولة النقد ولكن محاولة الاتهام والاستعداء ... والارهاب الفكري اكبر مأساة تحل بأمة من الامم... ان الافكار هي محطات الارسال التي يطلق منها الانسان قذائفه ومحاولاته لغزو الطبيعة المنيعة وغزو الآلام والمصاعب التي تعوق تطوره وانتصاره !

ولو أزلنا من حساب أي شعب من الشعوب رصيده الفكري لبقي بلا حضارة ولا تاريخ... فلا حضارة بلا تفكير، ولا تفكير بلا حرية ، ولا حرية مع الخوف ...

واذا وجد الارهاب الفكري فقد وجد كل ارهاب ، كما انه اذا وجدت الحرية الفكرية زال الارهاب كله ... فلا حرية اذا لم توجد الحرية الفكرية ، واذا وجدت فقد وجدت كل حرية ... ومن المستحيل ان نكون احراراً ما لم نكن احراراً في تفكيرنا وفي التعبير عنه ..

لم يخلق الله حتى الآن من يستطيع ان يرتفع فوق جميع الآلام والمخاوف وان كان اعظم الابطال ... ومهما كانت الطاقات النفسية ، فان المجتمع هو الذي يجعلنا احراراً او يجعلنا غير ذلك... فالذين يعيشون في مجتمع يعادي الحريات ويجرح من يريدون ان يكونوا احراراً ويطلق عليهم كل اسلحة الاتهام والتشنيع والقذف، فلا بد ان يكونوا جبناء — او على الاقل — لن يكونوا أبطالاً ... والارهاب الاجتماعي لا يقل ازعاجاً وكبتاً للحرية التي تريد الانطلاق عن الارهاب القانوني او الحكومي ... فلا يكفينا لنكون احراراً الا يعاقبنا القانون او السلطان على الحرية — بل يجب الا يعاقبنا ايضاً المجتمع ...

وهؤلاء الكتاب الطيبون الذين يرموننا بشر التهم وأسوأ الظنون — على منابر من عواطف الجماهير — هم يرهبوننا وينالون منا . واظن ان هؤلاء الاخوان لا يدركون مدى الأضرار التي يصيبون بها أمتهم بما يشنونه من هجوم نبيل على كل من اراد من قومهم ان يتحرك داخل القمقم - دع من اراد الخروج منه ...

ليتهم يعلمون انهم يعطلون في أمتهم بما يفعلون اقوى الاحتمالات ويحرمونها من الانتفاع بطاقة الانسان الكبرى ويحطمون في يديها سلاحها الظافر ...

وليتهم يعلمون اننا نريد ايماناً قوياً يستطيع ان يدافع ، وأفكاراً حرة تستطيع ان تهاجم ، لأننا نريد ان نكون أحياء يحملون حماس الحياة وصخبها واخطارها ، ولا نريد ان نكون متاحف تتجمع فيها جثث التاريخ ومتاعبه !!

اني اؤمن بان الله يحترم عبده الحر النشيط المفكر الفعال أكثر مما يحترم عبده المؤمن الضعيف الجبان البليد ، لانه يريد من البشر ان يحققوا معنى ذاته في قوتهم ، لا ان يحققوا معنى ضعفهم في عبوديتهم !!

ان افضل دفاع عن العرب والاسلام هو ان نكون احراراً وشجعاناً وفضلاء ونافعين للحياة ... وليس من الدفاع ولا من الصلاح ان نخشى الحرية وان نلعن الاحرار ونتشدد في قبض أيدينا على رياح الماضي أو ترابه !!

وان اضافة اي جديد الى حياة العرب والاسلام ، من القوة او العلم ، لأفضل واقوى في الانتصار لهما والدفاع عنهما من جميع الدموع واللعنات التي نفرزها سخطاً على المخالفين او بكاء على الدين !

عبد الله على القصيمي